

"دعوة الأطباء" لابن بطلان : في المأدبة أو تفاعل أنساق الثقافة

بسمة عروس

كلية الآداب - منوبة

في "المأدبة" جنسا :

استقرّ في عرف النادرين مثلما استقرّ في ذهن المتقبّل أنّ ما استهلّ بدعاء وتحميد وتمجيد واختتم بذات ما استهلّ به وقام على توجيه الخطاب إلى جهة معلومة تقوم في قانون الترسل مقام ما يحفظ شرط التخاطب الثنائي وما يؤسّس للوضع التخاطبي الترسلّي، يعدّ واقعا في مجال جنس الرسالة، قابلا للانتظام في سلك ما تنظمه من منجزات نصيّة وما تستوعبه من أنواع.

يسمّي "ابن بطلان" "دعوة الأطباء" رسالة ويعرّفها بقوله : "هذه رسالة دعوة الأطباء على مذهب صاحب كليلة ودمنة تشتمل على مزح يبسم عن جدّ وباطل ينطق عن حقّ وخير القول ما أغنى جدّه وألّهى هزله" ⁽¹⁾ ويشير إلى ذلك أيضا في خاتمتها حيث يقول : "تمّت الرسالة

(1) ابن بطلان، المختار بن الحسن بن عبدون، دعوة الأطباء، تحقيق وتقديم وشرح فاطمة الأخضر مقطوف، دار حنبعل للطباعة والنشر، تونس 2002، ص 53.

بحمد الله ومنه" (2) وتنطق مقدّمة الكتاب بالجهة التي تنتهي إليها الرسالة وتفصح عن المتلقّي الأوّل الذي ألّفت بأمر منه حيث يقول مؤلّفها في الموضع نفسه من المقدّمة : "صنّفها المختار بن الحسن للأمير نصر الدولة أبي نصر بن مروان" (3). وعلى الرغم من استجابة نصّ الدعوة إلى ما يجعله صريح النسبة إلى جنس الرسالة يبقى الناظرون فيه متردّدين بين اعتباره رسالة أو مقامة ومن ذلك مثلاً ما ذهب إليه "القفطي" في ترجمته لابن بطلان حيث اعتبر "كتاب دعوة الأطباء مقامة ظريفة" (4).

وليس التردّد بين اعتبار "دعوة الأطباء" مقامة أو اعتبارها رسالة ممّا يغرينا في حدّ ذاته وإنّما هو بالنسبة إلينا علامة على محاولة تقريب خصائص النصّ ومقتضياته من دائرة أيّ جنس من الأجناس المعروفة قبل أن يكون علامة على خلط الناظرين فيه بين مقتضيات جنس أدبيّ وآخر.

إنّ نزعة ردّ المختلف نحو المؤتلف والبحث عمّا تقع به المشابهة الباعثة على حشر النصوص داخل أقرب المجالات الأجناسيّة إلى خصائصها وسماتها ممّا يفسّر أحياناً الاضطراب في نعت النصّ أو التأرجح في نسبه.

لقد سمّى "ابن بطلان" ما كتبه "رسالة" ولم تكن الإشارة إلى هذه الكلمة في تضاعيف الكتاب ممّا يراد منه تأكيد هويّة أجناسيّة أو دفع شبهة التداخل والخال أنّ جنس النصّ باد منذ عنوانه حاضر فيه وفي ذهن مؤلّفه رغم إلحاحه على اعتباره رسالة.

فالدعوة أو "المأدبة" هي جنس هذا الكتاب وإن اتّخذ الرسالة سبيلاً وشكلاً من أشكال التحقق. تتخفّى المأدبة «le banquet» خلف الرسالة لأنّ

(2) المصدر نفسه ص 58.

(3) المصدر السابق، ص 175.

(4) القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، تأريخ الحكماء، مكتبة المتنبّي، مؤسّسة الخانجي بمصر، دت، ص 298.

أقرب هوية أجناسية يمكن أن تحتضن نصّ الدعوة هي الرسالة بل ربّما عمد المؤلّف إلى اصطناع الإطار الترسلّي ليتسنى له تقديم خطاب المأدبة وليتحقّق "للمأدبة" انتمائها إلى مجال أجناسيّ معروف واقع ضمن الخطاطة الأجناسية التي تمثّلها الأجناس الأدبية العربية.

يهتدي الباحث في "دعوة الأطباء" إلى آثار الرسالة الأدبية وهو ما يعمل النصّ على إذاعته لكنّه يهتدي إلى جانب ذلك إلى خطاب مواز، خطاب يقدّم في إهاب خطاب آخر هو "المأدبة" جنسا من أجناس الخطاب أو "الدعوة" عندما تتحوّل إلى صورة من صور تشكيل مضامين خطاب مخصوص يتّخذ له منجزا نصّيّا يبلوره ويبيده.

يبتّم نصّ الرسالة في دعوة الأطباء بإبراز مختلف أطوار المأدبة ومكوّناتها وتدرّج الأحداث منتقلة من مرحلة إلى أخرى فتمضي معها من مجلس الطعام إلى مجلس الشراب فتتطوّر في أثنائه المحاورّة وتتفرّع مجالاتها إلى أن تفضي في النهاية إلى ما يختم المجلس. فانتهاه الحديث وبلوغه مرحلة يحسن السكوت عندها مرتبط بختام مجلس الشراب وانقطاع أجواء "المأدبة".

تحدّد "المأدبة" في سياقها الثقافي وتحدّد كذلك في سياقها اللغويّ الذي يؤكّد الترابط بين المؤادبة والأدب والدعوة على الطعام أو الشراب. "فالمأدبة" أو الأدبة أو المأدبة هي كلّ طعام صنع لدعوة أو عرس "والمأدبة كذلك من "الأدب" ومنه الدعوة إلى التعلّم من "مأدبة القرآن أي مدعاته والأصل في الأدب هو الدعاء ومنه قيل للمصنّع يدعى إليه الناس مدعاة ومأدبة" ⁽⁵⁾ كما يؤكّد من جانب آخر معنى الاجتماع والالتفاف حول أمر اجتماعا لعلّه يلمّح إلى معنى المشاركة ومعنى الانخراط الاجتماعيّ في

(5) انظر مادة (أدب) في لسان العرب.

مارسة منظّمة تتخذ صبغة الطقس الجماعي ومن ذلك ما نجده من قولهم "أدّبهم على الأمر : جمعهم عليه وندبهم إليه" (6).

يعزّز الترابط بين معنى المأدبة ومعنى الدعوة في رأينا وقوع هذين المفهومين في حيّز دلاليّ واحد هو الحيّز الذي يستحضر في الذهن المقصود من مفهوم الـ « banquet » مثلما عرف في الطقوس التعبدية القديمة ومثلما اعتنت عديد الحضارات بإبراز التعدّد في الإيفاء بشروطه وتصريفه في مجالات تحقيق معنى "التأنّس" « la sociabilite » والاجتماع (7).

إنّ اعتبارنا "المأدبة" جنسا من أجناس الخطاب أو حتّى جنسا من الأجناس الأدبيّة (8) لا يستند فقط إلى ملاحظة النصوص التي تعرف في هذا المجال وإن كانت على ندرتها محقّقة للمقومات المخصوصة التي تؤسّس لأجناسيّة هذا النوع وإنّما يستند كذلك إلى ملاحظة تحوّل جملة المضامين الثقافية المخترقة مفاهيم اليومي والاحتفالي المفضية إلى نسج أنماط الثقافة الاجتماعيّة تحوّلًا تحفل به النصوص الأدبيّة وتتخذ منه قواما وموضوعا وشكلا من أشكال تصريف وجهات الخطاب.

عرفت "المأدبة" منذ القديم عند جلّ الحضارات في إطار طقس ديني مرتبط بالطعام القرباني والشراب الروحاني الذي يحاكي دم الآلهة أو مرتبط بالغذاء المقدّس والولائم التي تقام في حضرة الآله

(6) انظر "أدب" في أساس البلاغة لـ جار الله الزمخشري، دار بيروت، دت، ص 206.

(7) Pantel Schmitt, Pauline, La cité au banquet, histoire des repas publics dans les cités grecques, école française de Rome, 1992, p 11, 12 .

(8) يُتحدّث عن أجناس الخطاب في إطار نظريات تحليل الخطاب ويُتحدّث عن الأجناس الأدبية في إطار نظريات الأدب لكن هذا لا يمنع تقاطع مجالات كليهما في بعض المواضع. يهتم مفهوم أجناس الخطاب من جملة ما يهتم به برصد ظروف إنتاج الخطاب وشروطه ومن ذلك الطبيعة التواصلية أو النظام التركيبي أو الخصائص الشكلية للنصوص أو الخلفية الاجتماعية التي تصدر عنها.

فيحقق فعل الجلوس إلى مائدة واحدة وتناول أصناف الطعام نفسه واحتساء الشراب نفسه عند المنخرطين في هذا الطقس، معنى المؤدبة ومعنى الاشتراك ومعنى الترابط الاجتماعي والتوحد في الشعور الديني. يفهم حضور الطعام والشراب في المأدبة وتفهم طقوس تقديمه وتناوله وحتى طرق إعدادة واختيار مكوناته في إطار تحقيق معان تكفلها ممارسة هذا الطقس⁽⁹⁾.

ولسنا هنا في معرض التبسط قبي الحديث عن أصناف المآدب أو مختلف الطقوس المعتمدة فيها أو القيم التي ينشدها الأفراد من ممارستها إذ ما يعيننا هو تحوّل ممارسة طقس المأدبة إلى ما يؤسّس لفضاء الترابط الاجتماعي وخلق أواصر بين أفراد معيّنين يجتمعون حول أمر ما يمثل إطار المؤدبة المجال الرحب لتدارسه أو بحثه من خلال المحاور والكلام.

تمثل "مأدبة أفلاطون"⁽¹⁰⁾ نموذجا هاماً لأدب المآدب وفيها ينضمّ "سقراط" إلى دعوة "أغاتون" «Agathon» ويشارك ضيوفه مجلس الطعام ومجلس الشراب ويتدخل في تحويل مجرى الحديث وتوجيه المحاورات.

يتعلّق موضوع الحديث في "مأدبة أفلاطون" بمحاور مطوّلة حول الحبّ، ماهيته وكيفيته، وصورة الحبّ وتجربة الحبّ. يدلي كلّ مشارك بدلوه في هذا المجال ويعرض رأيه فيه مستغرقا حيّزا من الحديث ليخلص الأمر في النهاية إلى ما يشبه التقرير للحبّ ومن ثمّ التقرير للفلسفة ومنها يخلص إلى تقرير لسقراط نفسه.

وليس شأن "مأدبة أكزينوفون"⁽¹¹⁾ «Xenophon» بمختلف كثيرا عن مأدبة أفلاطون إذ نجد تقريبا الإطار نفسه والطقوس نفسها تستخدم في

(9) Bottéro Jean, Le plus vieux festin du monde, in l'Histoire, n° 85, 1986 , p 58 .

(10) Platon, Le banquet, Phedre, traduction et notes par E. Chambry, Garnier - Flammarion, 1964.

(11) Xenophon, Banquet + Apologie de Socrate, texte établie et traduit par François Ollier, société d'édition «les belles lettres», Paris 1972 .

توجيه خطة الخطاب غير أنّ موضوع الحديث الذي يكون حول الشراب مختلف إذ يتوجّه أساساً إلى شخص المضيف محاولاً إقناعه بفضيلة العمل في اتجاه الصالح العام واحترام قوانين المدينة منذراً بقيم الفضيلة وضرورة التفلسف وما إلى ذلك من المضامين المعروفة في الخطاب السقراطي.

وقد لا يتسنى لنا في هذا المقام التعبير عن خطورة المواضيع التي تنبثق عن قراءة كلتا المادبتين أو الإشكالات التي تثيرها وتلك التي تبقىها في حيز الضمني لكن يبقى في الإمكان الإشارة إلى اتخاذ شكل المأدبة أسلوباً لمعالجة مسائل فلسفية بوصفه الإطار الأمثل لتداول الحديث وتأسيس المحاوره وهو بدوره ما يدفعنا إلى التفكير في اعتباره وجهاً من وجوه تشكّل الخطاب الفلسفي.

إنّ معالجة موضوع عاطفة الحبّ وما يتّصل به في إطار مأدبة يحتفظ فيها النصّ بمختلف عناصر هذا الطقس الثقافي ويصفها ويبرز التفاعل بينها وبين تطوّر مراحل الخطاب الناضج للتفكير في الحبّ، أمراً نعتقد أنّه مجرد اتفاق أو مصادفة وإنّما نذهب إلى اعتبار أنّ المأدبة فيها شيء من جملة ما قصد وعمل الخطاب على إبرازه أو تحريكه.

ومعلوم أنّ البعد الاجتماعي والدلالة الثقافية "للمأدبة" مكوّن هامّ ينزّل لدى الباحثين منزلة ما يؤسّس لهذا الجنس أو على الأقلّ منزلة ما يؤسّس لخصوصيّته باعتباره ظاهرة تفتح دراستها على بحث السلوك الاجتماعي ومسألة اللياقة والعلاقة مع الآخر.

تحوّل المأدبة - تبعاً لذلك - إلى شكل من أشكال الخطاب يحتضن الخطاب الفلسفي كما يحتضن غيره من أصناف الخطاب وفي ذلك علامة على ما تمثله من دلالة ثقافية تتجاوز مجرد توفير الإطار الذي يحتوي الكلام أو الحديث إلى توفير خطة معينة في تصريف الخطاب وتوفير جملة من المضامين والقيم التي يعمل المشاركون في المأدبة على إشاعتها.

ولعلّ ارتباط طقس "المأدبة" منذ القديم بمعنى المقدّس وطقوس العبور ومعنى "الخلود" «Immortalite» ممّا يدعم ما ذهبنا إليه، غير أنّ تحوّل المضامين والقيم التي ترتبط بإقامة المآدب وتغيّرها بتغيّر الأزمنة أو الثقافات لا يمنع بقاء آثارها أو وجود ما يعوّضها ويقوم بديلا منها. إنّ تعامل الباحث مع نصّ يعلن أنّه خطاب المأدبة يتجاوز في رأينا المقاربات التي تكتفي بوصف أجواء المآدب أو تقرير أصنافها إذ يلتفت إلى إبراز دور المكوّن "مأدبة" باعتباره نوعا مسهما في تشكّل صنف من أصناف الخطاب.

يتفاعل في تحديد الهوية الأجناسيّة "للمأدبة" عنصران :
عنصر أوّل يتأسّس على مضامين الممارسة الثقافيّة لهذا الطقس ورموزه المتشكّلة في خلفيّة معنويّة تظلّ حاضرة أثناء الممارسة وبعدها، وعنصر ثانٍ يتمثّل في ما نستمدّه من ملاحظة تحوّل هذا الطقس إلى خطاب لم يتخلّص من مضامين الممارسة الثقافيّة وإن تعلّق الأمر بـ "مأدبة خاصة" «un banquet privé». ونخلص من كليهما بجملّة من المكوّنات التي نضبطها بصورة تقريبيّة وهي : الاجتماع حول الطعام في "مجلس الطعام" والاجتماع حول الشراب في "مجلس الشراب" وتجاذب أطراف الحديث موضوع محدّد يتحاور حوله "المآدبون" «les banquetteurs». ويفترض الاشتراك في الإيفاء بطقوس المؤادبة كون الأطراف المشاركة متأنسة متكافئة في صفاتها وانتظاراتها.

بعد تحقيق معنى التأنس أو المؤانسة والمؤالفة ممّا تفرضه أجواء المؤادبة وترمي إليه حيث تعمل جميع العناصر في المأدبة إلى تحويل فعل الأكل والشرب والمشاركة فيها إلى خلق أجواء انبساط النفس وسرورها،

ف"المأدبة" جنسا متشكّلا في منجز نصّي تكفل أكثر من غيرها إبراز هذه الوظيفة الثقافية لطقس المؤدبة التي يعولّ الباحثون في تاريخ الحضارات على الآثار والأساطير وتأويل الرسوم حتى يدركوها أو يستدلّوا عليها⁽¹²⁾.

والى جانب ما ذكرناه من مكوّنات للجنس "مأدبة" يمكن أن نضيف مكوّنا قصصيا ويتمثل هذا المكوّن في الخيط الناظم لجملة ماذكرنا من عناصر ويتمثل أيضا في النسيج الذي يحكم أطوار مجلسي الطعام والشراب والانتقال من مرحلة إلى أخرى من مراحل المؤدبة. ولا يقتصر دور هذا المكوّن على مجرد توفير الرابط بين مراحل وأطوار فهو يبرز المؤدبة بصورة التجربة التي تتطور في اتجاه انفراج «denouement» أو نهاية غالبا ما تكون رمزية.

يتفاعل المكوّن القصصي مع سائر المكوّنات في إبراز المؤدبة جنسا توجه فيه خطة الخطاب في اتجاه تحقيق معنى معين تكون نهاية طقوس التآدب والفراغ منها كسفا له ولحظة خطيرة يقف فيها القارئ على "فلسفة" الخطاب. ولا يخفى في هذا السياق ما تمثله نهاية "مأدبة أفلاطون" من معنى حيث يفهم استسلام المتآدبين في النهاية للنوم وبقاء "سقراط" وحده في حالة يقظة على معنى الرغبة في بقاء الفكر الحرّ

(12) من البديهي أنّ جلّ ما بلغنا حول طقوس المؤدبة في القديم استند فيه المؤرخون أساسا على قراءة الآثار والرسوم بما في ذلك الحديث عن الدور الاجتماعي والسياسي للمآدب واخذيت عن فعل الأكل والشرب في تقوية الشعور الديني وتحقيق الألفة وهو أمر تتفق فيه جلّ المصادر وما يبدو لنا طريقا في هذا المجال هو ما أشارت إليه بعض الدراسات في بحثها طريقة الجلوس في المؤدبة ونظام توزيع المتآدبين حيث انتهت اعتمادا على قراءة الرسوم الحجرية إلى اكتشاف أنّ العادة السائدة في القديم هي عادة الأكل في وضع الاضطجاع بدل الجلوس وقد يكون تغير هذه العادة مرتبطا بظهور الديانات السماوية.

انظر : Chauvin Pierre , Manger assis , Manger couché , l'Histoire, n° 85, 1986 , p 66.

انظر كذلك : Rouche Michel, Le banquet des moines au moyen -age , L'histoire , n°85 ,

1986 ,p71 .

المفلسف حيا يقظا مستمرا. فلئن كانت نهاية سقراط إعداماً له وفكره فإنّ "المأدبة" التي صوّره فيها "أفلاطون" مشتركا في طقس احتفالي، موجّتها الحوار حول الحبّ تحوّل هذه النهاية إلى تمثّل رمزيّ في أذهان الفلاسفة أتباعه فيه يتحقّق معنى الخلود والانتصار على الموت. وتجدر الإشارة إلى أنّ الحديث عن مجلس الطعام ومجلس الشراب يتّخذ صبغة العنصر المكوّن لجنس "المأدبة" لا بصفته تلك أو بدلالته الحرفيّة وإنّما من حيث هو إحالة على الإطار الاجتماعي والتشكّل المراسمي لضمون الدعوة باعتباره مرجعا ضرورياً ولازماً في تحقّق الهيكل الأساسي للمأدبة. ومن هنا تتبيّن أهميّة المكوّن الاجتماعيّ في هذا النمط من أنماط النصوص وطرافة البحث في التفاعل بين الدلالة الثقافيّة وسبل تحوّلها إلى موضوع للكتابة يحاول تمثيل اجواء التجربة المخصوصة التي تجسّمها المأدبة واستعادة قيمها أو لعلّه يجسّم جلّ التساؤلات التي يطرحها الإنسان والمعرفة التي يتوق إلى اكتسابها عبر ممارسة طقوس المآدب ويعمل على توجيهها في سبيل تحقيق سكيّنة النفس وخلاصها، ولذلك تكون كتابة المأدبة أفصح في التعبير عن جلّ هذه القضايا وأنسب لدعم نشاط المحاوره بوصفه الطريق إلى تفعيل الأغراض البعيدة لها.

إنّ ما يحفظ "للمأدبة" تفرّدها جنسا من الأجناس المتّسمة بمنزلة ووضع مخصوصين هو شدّة التفاعل بين الدلالة الثقافيّة والرمزيّة التي تمثّلها ممارسة طقسها وطبيعة الخطاب الذي يتنامى في كنفها وتتجلّى في تضاعيفه آثار هذا التفاعل وآثار الانشداد إلى تقاليد المؤادبة والتوق إلى تحقيق لحظة صفاء النفس. ولعلّ محاولة استقرار مقوّمات المأدبة أو مكوّناتها قد يكون تحديدا لبعض المعالم التي تتشكّل من خلال النصّ دون أن يستوفي شروطاً لا يكون الجنس إلّا بها، ذلك أنّ مقتضيات الخطاب غير مقتضيات الطقس أو الممارسة الاجتماعيّة المقنّنة فما يكون في "المأدبة" - من حيث هي طقس احتفالي - ضرورياً أو لازماً لا يكاد يغيب على اختلاف أصنافها مثل وجود الخمرة قد يكون في الخطاب الذي يحكي

المأدبة ويمثلها مجرد مكوّن ضمن عدّة يسهم في في تلوين هذا الخطاب أو تغيير وجهته. إنّ مقتضيات الكتابة غير مقتضيات الممارسة، ذلك أنّ للنصّ مراجع ينهل منها وسياقات تتدخل في تشكيله ولا بدّ للكتابة الأدبية من أن تحتكم إلى شروط إنتاج للنصّ يرتهن فيها إلى ذاكرة النصّ والجوار الاجناسيّ وغيرها من العناصر التي تؤثر فيه.

وهكذا يتبيّن أنّ البحث في نصّ المأدبة ومحاولة قراءته وفق منطق يراعي خصوصيّة الخطاب وأهمّ السمات الكفيلة بتحديد أجناسيّته أمر ممكن، بل هو واقع في صميم الكشف عن تنوّع الكتابة النثرية وتنوّع أنماطها. وهو ما نحاول تجربته من خلال قراءة "دعوة الأطباء" للطبيب النصراني العربي ابن بطلان (ت 458) محاولين الاهتمام إلى مواطن الطرافة فيها هذه المواطن التي تردّ في جملة ما تردّ إلى بلاغة هذا الجنس ووجوده في صميم الممارسة الثقافية وإشكالاتها المتعلقة "باليومي" وبالإنسان.

في المأدبة وطقوس المؤادبة :

تتجلى المأدبة في "دعوة الأطباء" بصورة المكوّن الأساسي والمنطلق الذي يتحقّق الخطاب من خلاله، فانفتاح النصّ على اقتراح الضيافة من الطبيب الشيخ على الشاب المدّعي الانتساب إلى صناعة الطبّ، هو الذي طوّر الأحداث في اتجاه استعراض مراسم المأدبة وطوّر الخطاب في اتجاه ما يقتضيه هذا المقام وما تقتضيه انتظارات الأفراد المشاركين في المأدبة ونواياهم⁽¹³⁾.

(13) انظر قوله في "دعوة الأطباء" في آخر الفصل الأوّل : "... فلما أنس منّي الشيخ إلى ضعف المعدة وقلة الشهوة قال: نقوم إلى البيت يا فديتك لنأكل شيئا وتحدّث فقد أنست بك لأنك لست من أهل البلد فتخرج حديثنا إلى أحد..." ص 69.

ومن ثمّ تتحوّل المأدبة إلى موضوع للخطاب فيصبح الاهتمام منصّباً على وصف المجلس ووصف المائدة وما يفترضه ذلك كلّ من وصف الأكل والتلذّذ وإسكان الشهوة وصفا لا يخلو من العناية بإدراج الحديث، إذ الحديث على الطعام ممّا يؤكّد محاولة الفرد خلق التفاعل بينه وبين الآخرين وبين موضوع الطعام فيتحوّل موضوع الانتشاء بالمضغ والبلع إلى ما يشيع معنى الراحة والسكينة والاكتفاء أي التهيؤ للأنس.

بدأت المأدبة في دعوة الأطباء مؤلفة من شخصين هما كما أسلفنا الطبيب الشيخ وضيفه الغريب المبثلى بضعف المعدة وقلة الشهوة إلى الأكل المعتزم التزام حمية، فكان ذلك سببا وجيها لتحويل الخطاب في اتجاه حفظ الصحة من خلال السلوك الغذائي والحديث عن منافع الأغذية ودفع ضررها.

1 - المائدة : في الطعام ومائدة الطبيب :

تمثّل المائدة لحظة أساسيّة في المأدبة بل هي الأساس المادّي الذي يهيئ لها، فهي موضوع طبيعيّ في هذا الجنس لأنّها من شروطه. تشتمل مأدبة الطبيب على جملة من الأصناف روعي التدرّج في تقديمها واعتمد نظام معيّن في عرضها تباعا فلا يقدّم صنف منه قبل أن يرفع آخر، وفي ذلك احتكام إلى نظام متأخّر⁽¹⁴⁾ في المآدب يخرج عن تقليد وضع كلّ الأصناف على المائدة باختلاف أنواعها يصيب منها الضيف قدر ما يصيب ويختار منها ما يستطيب ويشتهي، وفيه أيضا ما يذكر بتقاليد المآدب في الخواضر العباسيّة والأندلسيّة حيث التدرّج في إيراد الأصناف يقوم على الابتداء بالفواكه والبوارد.

(14) Schmeil Yves , Dejeuner en paix : Banquet et citoyenneté en mediterranee orientale , Revue française de science politique , vol 48 , n°3-4 , juin - aout 1998 , p 353 .

ومن ثمّ اللحوم والمشويات ومن ثمّ المعجنات وتختتم المائدة بتقديم الحلوى⁽¹⁵⁾.

أتبعت مائدة الطبيب المراحل التالية : قدّم في البدء طبق يشتمل على بقل وخبز وخلّ ثمّ قدّم بعده "الشوي" ويبدو أنّه يأتي في التقاليد في مرحلة ثانية أو مرحلة وسط من سائر الأصناف⁽¹⁶⁾، ثمّ أتبع الشوي "بمضيرة" وأتبع المضيرة "بإوزة بلبن عملت تحت الحمل"⁽¹⁷⁾ ثمّ ختمت الأصناف بتقديم الحلوى.

يمكن أن نستنتج أولاً، قبل أن نستعرض تفاصيل ما حفّ بالمائدة، أنّها تفي إلى حدّ ما بشروط ترتيب الأطعمة ونظام تقديمها خصوصاً في تأخير الحلوى ومراعاة الابتداء بالبارد. لكنّ مائدة الطبيب تبقى مخصوصة جداً، ذلك أنّ غرض تقديم الطعام بأصنافه لم يكن موجّهاً نحو معنى قرى الضيف وإكرامه بقدر ما كان موجّهاً نحو استثمار المعرفة في مجال منافع الأغذية ومضارّها وسياسة الجسم السليم بالغذاء الطيّب الملائم للحاجة، فتحوّلت ضيافة الغريب إلى ما يشبه وصفة الطبيب يحذّر من مخاطر صنف ويدعو إلى أطراح الإقبال على صنف آخر

(15) الميساوي، سهام الدبّابي، "الطعام والشراب في التراث العربي"، أطروحة دكتورا الدولة (بحث مرقون)، كآية الآداب منوبة 2004. انظر الباب الثالث : "النافع والضار في الصحة وفي المرض" ص 402 وص 404. انظر خاصة قولها : "... وقد ألفت في البيئة العباسية أن تفتتح المائدة بالفواكه الرطبة واعتادت بداية الطعام بالبوراد فأطباق اللحوم المصنوعة بالخلّ والمرّي فأطباق الشرائد والأطرية ما شاكلها فاخلوطيات وهذا الترتيب هو الذي اتبعه أهل الأندلس المتأثرون بالنمط المشرقي في العيش".

(16) تتفق جلّ المؤلفات الطيّبة حول هذا الشأن، انظر على سبيل المثال : البلخي، أبو يزيد أحمد بن سهل، مصالحي الأبدان والأنفس، منشورات دار العلوم العربية، فرانكفورت 1984، صص 118، 119، حيث يرى في وجه تأخير الشواء "أنّه كثير الإغذاء قويّ بطيء النزول عسيره".

(17) "دعوة الأطباء" ص 81.

وينصح بالحمية وقمع الشهوة وصار تقديم الأصناف تعلق الأطباق مزدانا بها إناؤها بما لا يستثير شهوة الضيف بقدر ما يستدعي محاضرة الطبيب يذكر بتعاليم الأولين ويستشهد "بأبقراط" ويرغب في الحكمة والأتزان.

يقول "ابن بطلان" في دعوة الأطباء : "وجلسنا ساعة نتحدث وإذ الغلام قد أتى بطبق عليه منديل وفوقه خبز وبقل فلما وضعه بين أيدينا" قال : (الطويل) :

وما الخصب للأضياف أن تكثر القرى
ولكنما وجه الكريم خصب
أضاحك ضيفي قبل إنزال راحله
ويُخَصَّب عندي والمحلّ جديب

(...) وأخذ رغيفا وقال : رحم الله العجوز فقد كانت لها عناية حسنة بالخبز (...) فإنه معسول⁽¹⁸⁾ الخنطة مختمر العجين معتدل الملح (...) سريع الهضم علك المضغ، ثم أخذ طاقة هندباء وقال : اعلم يا سيدي أن الهندباء أنواع أجودها الرقيقة فإنها أجود من غيرها في إصلاح الكبد وأسرع في فتح السدد وكثيرا ما أسقي ماؤها مع الراوند (...) لا سيما إذا اتفق أن تؤكل مع هذا الخلّ الثقيف فما معولّي في دفع الصفراء إلّا عليه، فلما هممت بالأكل قال : ألت على النية في الحمية ؟ قلت لعليّ اختار يوما لذلك قال أعظم الذنب اليأس من الرحمة وشرّ من المرض التسويف بالحمية والمريض المخلّط كدودة القزّ التي كلما ازدادت نسجا زادت عن الحياة بعدا. قلت يا سيدي، أنا والله كاره الحمة، قال : لعمري إنّ الحمية صعبة لكنّ أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس و"فيثاغورس"

(18) كذا بالأصل ولعلّه مغسول. وقد أشارت المحققة إلى ذلك في هامش الصفحة (70) مستندة إلى بعض النسخ المخطوطة من "دعوة الأطباء".

يقول : من ساس المعدة فقد قرّب جميع الأعضاء من الاعتدال (19) .

شكّل نظام تقديم أصناف الأطعمة وسيلة يتنامى الخطاب وفقها، فعند كلّ صنف يقدّم يحضر خطاب طبّي يلائم ذلك الصنف وتحضر الحجج المانعة من الأكل (20) ويجتهد الطبيب باذلا الوسع في سبيل منع الضيف من الأكل فإذا ما فشلت الحجّة الطبيّة والمنطقيّة الفلسفيّة في ذلك أوماً إلى غلامه برفع الطبق، فكان التدخل السلطوي للمضيف هو السبيل الوحيد لتحقيق غرضه.

ويتجلّى ذلك في مواضع عديدة لعلّ أهمّها قصّة "المضيرة" حيث يقول في "دعوة الأطباء" : "فقدّم مضيرة بلحم بقرّيّ فبدأت أكل فقال : اعلم وقلّك الله أنّ الأكل يستمرى الأطعمة الموافقة له وتستمرنه الأطعمة المخالفة لطبعه وهذه مضيرة بقرية والقدماء ينهون من به ما بك عن الجمع بين لحم البقر واللبن كما ينهون عن الجمع بينه وبين السمك، هذه والله معدن وجع المفاصل والنفرس والقوة والقولنج والفالج فالله الله أن تحملك الشهوة على الاستضرار بهذه المضيرة ثمّ قال لغلامه : ارفعها ففي رفعها أخيرة لنا" (21). ولا يخفى ما في هذا الوضع من المفارقة، فالطبيب يعرض الطعام الذي لا يوافق ضيفه المريض، الطعام الذي لا تؤمن غائلته ويشحذ الحجج والقوانين الطبيّة لبيان ضرره رغم أنّه ممّا تزدان به مائدته ويقدمه غلامه. يبدو سلوك الطبيب الظاهر من خلال خصائص مائدته

(19) "دعوة الأطباء" صص 70 - 71.

(20) يتجلّى ذلك في مواطن عدّة حيث يبدو الخطاب الطبّي متناغما مع خصائص الصنف المعدّ من الطعام وكأنّما هو رأي طبّي أو استشارة. انظر قوله في "دعوة الأطباء" : فقال لغلامه : ارفع هذا وقرب الشويّ ممّا قدّم الغلام حملا مشوياّ فمددت يدي إلى الأكاف فقال : إياك وإياها فإنّها تقبل من القلب الفضلات، فمكثت نحو الزور، فقال : لا تعرض له فإنّه بطيء الهضم فعدلت إلى الكلى، قال : هذه معدن البول ومائيّة الدم ...

(21) "دعوة الأطباء" ص 81.

مخالفا تماما لطبيعة فلسفته حول الغذاء والسلوك الغذائي للإنسان السويّ في جسمه ونفسه الذي يستكره من اللحوم لحوم الأبقار سيّما إذا ما قرنت بمضيرة (22).

كما تتجلى المفارقة في مظهر آخر من سلوك المضيف فهو يدعو الغرب إلى مائدته وطعامه ويقدم له أصناف الأطعمة ويمدح له الخبز والهندباء والخلّ الثقيف ويمنعه من الأكل ويأمر خادمه برفع الطبق كلّما تبيّن له أنّ الضيف معن في لون من ألوان الطعام.

تكشف المفارقة الظاهرة في السلوك أو بين السلوك والخطاب عن خلفيّة فكرة المنع باعتبارها تناقض منطق الضيافة. فالمضيف يعتمد إلى استقبال ضيفه في بيته ويلجّ في الدعوة ثمّ يقدم له الطعام فإذا ما مثل الصنف أمامه منعه من الاقتراب منه وأبعده عنه فكأنّ في الأمر ضربا من القهر «frustration» يمارسه الطبيب الشيخ على ضيفه الغرب الشّاب المدّعي صناعة الطبّ، يحرمّ عليه فيه موضوع راحته وطيب نفسه. تتحوّل الضيافة وفق هذا المنظور إلى فضاء يمارس فيه المضيف سلطة القهر والمنع مفعّلا بذلك سلطته باعتباره السيّد المتصرّف في المجال الاجتماعي الذي تمثله المادّية وباعتباره الجهة التي تمنح الدعوة بعدها المراسمي وشرطها الاجتماعي (23).

(22) تتفق جلّ المؤلفات الطبيّة العربيّة القديمة وخاصة منها المؤلفات في الأغذية على استكره لحوم الأبقار واعتبارها في أسفل المراتب بالنسبة إلى أصناف اللحوم فهي أخبثها وأرذؤها. انظر على سبيل المثال: الرازي، أبو بكر بن زكرياء، منافع الأغذية، دار إحياء العلوم، بيروت، دت. انظر خاصة قوله ص 99 متحدثا عن عن استكره لحوم البقر : «يتولّد منها دم غليظ متين .. » .

(23) انظر :

Hannoyer, J., L'hospitalité, economie de la violence, in Maghreb Machrek, n° 123, 1989.

انظر كذلك المرجع المذكور سالفا :

Schemeil Yves, Dejeuner en paix : banquets et citoyenneté en mediterrannée orientale, Revue française de science politique , vol 48 , n° 3-4 , juin / aout 1998 .

إنّ سلوك منع الطعام على المائدة لمن أغرب ما عرف في المآدب من سلوك لأنّ الأصل في المؤادبة أن تكون المؤاكلة والمشـاربة «commensalité» قيمة ذات بعد اجتماعي وثقافي داخل الإطار الذي توقّره، فإذا ما تحوّل هذا الإطار إلى فضاء سياسة العنف المبطن من خلال لعبة تقديم الطعام والشراب ومسرحة الاستقبال والضيافة «théatralisation de l'hospitalité» فإنّ قيمة الضيافة بدورها تتحوّل إلى مجرد إطار مفرغ وصورة باهتة تعلن عن نموذج متدنّ للعلاقة مع الآخر⁽²⁴⁾.

إنّ فكرة منع الطعام والاحتجاج بالخطاب الطبي في ذلك والاستعانة بأقوال الفلاسفة والقاعدة الفكرية والاخلاقية لفكرة "الاعتدال"⁽²⁵⁾ ليس في نظرنا علامة على محور معنوي معروف في قصة الضيافة متعلّق بشخصية البخيل البليغ صاحب الحجّة والفصاحة، وإنّما تعدّ هذه الفكرة - في رأينا - علامة على ما يخرق شرطاً أساسياً من شروط "المأدبة" هو شرط استهلاك الطعام المقدّم بما قد يدفع إلى التفكير في القصد إلى تقويض "الطقس" من داخله وتحويل النص إلى نموذج واضح لما نسمّيه بضدّ المآدبة «anti - banquet». وعلى الرغم من تلميح النصّ في "دعوة الأطباء" إلى بخل الطبيب في مواضع متفرّقة منه لا نميل إلى اعتبار قصة مجلس الطعام بما يستعيد المحاور المعنوية التي تعتمدها أخبار البخلاء أو النوادر المتعلّقة بالضيافة أو التطفيل وإن شابهتها أحياناً، لأنّ امتناع المضيف مشاركة ضيفه الطعام واستخدامه سلطة توجيه السلوك الغذائيّ بما يدلّ على توسيع الوظيفة الثقافية للمأدبة لتصبح متّصلة بسياسة العنف

(24) Derrida Jacques ,Dufourmantelle Anne, De l'hospitalité , ed Galman - Levy , 1997 , p 21 .

(25) تمثّل هذه الفكرة مبدأ أساسياً في الفلسفة الطبية اليونانية الأبقراطية خاصة ولا تخفى جذورها الفلسفية والأخلاقية، وقد تبلورت في مجالات عدّة خاصة في مجال صيانة الجسم بالأغذية وصيانة النفس وتهذيبها. تبنّى الطبّ العربي هذه الفكرة وأبرزها في صورة المبدأ الطبي العام وتجلّى ذلك عند الأطباء الأبقراطيين.

المبتطن واستراتيجيات العلاقة مع الآخر وهي وظائف تطلب في مستوى استقراء الدلالات الثقافية للمآدب باختلاف أنواعها (26).

تمثل مأدبة الطبيب مأدبة مخصصة جداً ووجه الخصوصية فيها لا يتأتى من خطاب الطبيب الذي يستعرض منافع الاغذية، ولا يتأتى كذلك من تقديم الطعام ومنعه، وإنما يتأتى من الصنف الأخير الذي قدمه خادم الطبيب، ويبدو أنه صنف قد أعدّه بعناية وحرص عليه أشد الحرص وجعله آخر مائدته وإن كانت المائدة العربية تختتم بالحلوى ولا تزيد بعدها صنفاً.

يقول ابن بطلان في دعوة الأطباء على لسان الضيف المدعي صناعة الطب: "وأوماً إلى الغلام برفع الطبق فظنّ أنّه يستدعي منه الحلوى، فقدم جاماً صبيغ اللون محكم العقد، فازداد غيظه وكاد يرمي الجام بمططير دموعه (27) وقال أعوذ بالله من سوء ما جرت به المقادير، اعلم ياسيدي أنّه ليس الأمر بالخير بأسعد من المطيع له والناصح بأولى بالنصيحة من المنصوح له، واستمع نصحي واعلم أنّ الحلوى مضرة بالأسنان مبرّدة للفم واللسان لا سيّما إذا أتبعته بالماء المبرّد (28) (...) ثمّ قال لغلامه: ارفع الحلوى وهات ما عندك. فما شككت أنّه جام آخر ولون آخر قد تأخّر

(26) انظر،

Hannoyer, J ; L'hospitalite, economie de la violence, in Maghreb Machrek, n° 123, 1989.

وانظر كذلك المرجع المذكور سابقاً :

Schemeil Yves , Dejeuner en paix : banquets et citoyennete en mediterranee orientale , Revue française de science politique , vol 48 , n° 3-4 , juin -aout 1998 .

(27) كذا بالأصل ولعلّها "بتسكاب دموعه" كما أشارت إلى ذلك المحققة. انظر هامش ص 81 من "دعوة الاضياء".

(28) من انفيذ أن نشير إلى ما يتسم به هذا الموقف من غرابة بالقياس إلى ما نجده في كتب الطب العربيّة القديمة حيث تذكر الحلواء ضمن ما ينصح به من اغذية "لأنّها مسخنة للبطن زائدة في الدم". انظر على سبيل امثال كتاب "منافع الاغذية ودفع مضارّها" لأبي بكر الرازي ص 251. وقد أوردنا هذه الملاحظة لأنّها متعلّقة بالسياق الطّبيّ الوحيد تقريباً الذي يخالف فيه رأي ابن بطلان ما جرت عليه التقاليد الطّبيّة العربيّة السابقة.

وإذا طبق على المائدة فيه كلبات الأضراس ومكاوي الطحال والرأس وکلبات العلق والنشآب وصنانير السبل والظفرو زرقآات القولنج والذكر وقثاثير التبويل ورصاص التشقيل وملزم البواسير ومخراط المناخير ومنجل النواخير ومخالب التشمير ومحك الجرب ومنسار القطع ومهت القدح ومجرفة الأذن، (...) ودست المباحع .. فلما نظرت إليه تنغصت بالاكل وتصورت البلاء والسقم ..⁽²⁹⁾.

يكشف هذا الشاهد عن صفة الصنف الأخير الذي ختم به الطبيب مائدته، وهو مثلما يبدو مكوّن من جلّ الادوات الطبیّة والآلات المستعملة في مختلف اختصاصات الطبّ. لا يشكّل هذا التصرف عدولا أو خرقا ينضاف إلى الخرق المتمثّل في منع الطعام بقدر ما تتوقّر غرابته على دلالة رمزيّة، ذلك أنّ تقديم الآلات الطبیّة المتّخذة من المعادن والاحشآاب المحدثّة في الجسم فعل الالم قبل أن تحدث فعل المداواة والشفاء في محلّ ما يتخذ طعاما بمثابة من يلقم ضيفه الحجر بدل الطعام اللين اللذيذ. هذا الطبيب هو كالأكل أدوات عمله والمלתهم المادّة الطبیّة ورموزها في محلّ ما يلتهم وابتلعته الفم وتصيره القوّة الهاضمة كيموسا وأخلاطا متنوّعة وينساب في النفس متعة ونفعا.

ولما كان فعل الاكل فعل إدماج «incorporation» تتحقّق من خلاله المتعة وتسكن معه الشهوة ويتحقّق من خلاله للنفس اعتدالها بالغذاء الملائم لطبيعتها فإننا نرى أنّ ختام مراسم مجلس الطعام بتقديم الادوات الطبیّة بدلّ على العلاقة غير الطبیعیّة التي تجمع الطبيب بمهنته أو بالمعرفة الطبیّة. فالطبيب يبدو هنا بوضع من لم يعد إلّا أن يدمج المهنة والمعرفة الطبیّة داخله في محلّ ما يدمج من أطعمة تستشعر وتدرک عبر الحسّ والذوق المثقّف. وينبغي هنا أن لا يصرفنا موقف الضيف الذي سجّله من خلال الإشارة إلى تنغصه واشمزازه عن تبين مغزى التصرف الذي أتاه المضيف في تقديم أدوات الطبّ وآلاته صنفا أخيرا يختم به مائدته لأنّ هذا

(29) دعوة الأطباء من ص 82 إلى ص 84.

التصرّف يطلب تأويله في المستوى الرمزي فهو إن نضد المشارط والمراهم والزراقات وهيّاها في طبق كما يعدّ الطعام إنّما يعبر بشكل لا واع عن الرغبة في استجواء «introjection» الصناعة الطيّبة وعناصرها استجواء لعلّه يعبر عن الخواء والانكسار في ظلّ غياب ممارسة طبيعيّة للمهنة.

ينبغي أن تحمل مائدة الطبيب بصمة الطبيب وهذه البصمة لم تتشكّل فقط من خلال الخطاب المصاحب للطعام وإنّما نرى أنّها تشكّلت عبر توضيب أطوار الأكل بحيث تفضي في النهاية إلى مفاجأة لا يأتيها إلّا طبيب.

2 - مجلس الشراب :

يمثّل المرحلة التالية مجلس الطعام ومن خلاله تتجلى السمة التي تقرب "دعوة الأطباء" من بنية المأدبة أكثر من أيّ مكوّن آخر، ذلك أنّ العادة في المآدب التي عرفت في الحضارات القديمة تقضي بالانتقال مباشرة بعد الطعام إلى مجلس الشراب المسمّى «symposion» ويتألّف هذا المجلس في الغالب من نخبة متقاة خلافا لمائدة الطعام التي يمكن أن تتسع لتجمع قدرا غير محدود من المدعوّين. ويخضع طقس احتساء الخمرة في إطار مجلس الشراب إلى عدّة شروط ومكوّنات تتعلّق بالأفراد وتتعلّق كذلك بالفضاء وكيفية تنظيمه وبهيئة الجلوس وبالشراب ونظام تقديمه⁽³⁰⁾.

ويمثّل مجلس الشراب أيضا لحظة مخصوصة لأنّه يكون بعد الأكل والهضم وغسل اليدين والتعطّر واتخاذ أكاليل الزهور كما هو الشأن في الحضارات القديمة ممّا يعكس الانتقال إلى مجلس أكثر صفاء والتأهب إلى تجربة أكثر إثارة وعمقا. يفهم مجلس الشراب في إطار طقوس المأدبة باعتباره سلوكا يهدف إلى تدريب النفس على حالات شعوريّة تمتزج فيها

(30) - Pantel Schmitt, Pauline , la cité au banquet , p3-4.

المتعة بالإسساس بالأنس والإقبال على الحديث وتحريك قوى وملكات ومناطق فيها ما كانت لتتحرك في ظلّ رتبة اليوميّ وكلّ الذهن أو إجهاده بالعمليات العقلية المروضة لقواه الخلاقة.

ولسنا هنا في موضع التوسع في مثل هذه الأمور وإنّما يكفينا منها ما يفني بغرض إبراز منزلة التي يمثلها الانتقال إلى مجلس الشراب في خطاب المأدبة وخطبتها. يوافق الإقبال على مجلس الشراب انبساطا في النفس وأنسا بالغريب عبّر عنه في دعوة الأطباء بتغيير سلوك الطبيب وانسراحه للحديث واتساعه الدعوة لتصبح مشتملة على نخبة متميزة من الأطباء أصدقائه الذين يمثلون الصناعة الطبية إلى جانب إمساكه عن خطاب المنع من الطعام والشهوة المهلكة، يقول في دعوة الأطباء واصفا مجلس الشراب : "فلما أنس إلى قلبي ظنّ أنّ باطن هذا القول كظاهرة وقال لغلامه : هات نبذا فأحضر طبقا ونقلنا فأخذ بيده القدح وغسله (...) ثمّ ملأ قدحا وقال : هذه الخمرة التي كنّا قديما نشتهيها وبقرط يقول : إنّها تسكّن الحشا وتشفي من ألم الجوع وفيها عشر منافع خمس منها تتعلّق بالجسم وخمس تتعلّق بالنفس أمّا التي تتعلّق بالجسم فإنّها تجوّد الهضم وتدرّ البول وتحسّن البشرة وتطيّب النكهة وتزيد في الباءة وأمّا التي تتعلّق بالنفس فإنّها تسرّ النفس وتقربّ الأمل وتشجّع الأمل وتقاوم البخل ثمّ شرب وقال لغلامه : امض إلى تلميذي أبي جابر الفاصد وادعه ومعه عوده، واجتز بصديقنا أبي أيوب الكحلّ وأبي سالم الجرائحي وقل لأبي موسى الصيدلاني : بحياتي إلّا جعلتنا في يومنا هذا أحد زبونك، فما كانت هنيهة حتى حضر القوم فسلموا علينا فرددنا عليهم السلام" (31).

يعتبر الحديث في مجلس الشراب جوهر المأدبة، بل يمكن القول إنّ مناقلة الحديث حول آنية الخمرة أو بين أدوار تقديمها هو المكوّن الذي

(31) دعوة الأطباء، من ص 98 إلى ص 92.

يخرج البعد الطقسي المختزن في ممارسات محدّدة إلى حيّز الإطار الملائم لنموّ التفكير والتفكير وتجلّي النفس تبرز محاسنها ويبرز ما فيها كالإناء ينضح بما فيه.

ولعلّ الطريف في هذا المجلس ابتداؤه بشرح طقس الخمرة قبل أن ينخرط في شرحه من منطلق طبّي كسالف عهد الطبيب صاحب المجلس، فتلا فيه قولاً لأبقراط وبذلك افتتح مراسمه وأسّس للعقد الذي يكفل لكلّ المتأدّبين حقّ الإصابة من مباحج المجلس في ظلّ شريعة "أبقراط" وبركته لا في ظلّ شريعة "ديونيزوس"⁽³²⁾.

إنّ في اتساع دائرة المشاركين مجلس الشراب ما يؤكّد ما ذهبنا إليه من أهميّة هذه اللحظة في المأدبة، فميل الطبيب إلى استدعاء أقرانه وشركائه في المهنة ممّا يدلّ على تأكّد الحاجة إلى الأنيس وطلب النفس الألفة. إنّ الأنس إلى الآخر ومحاولة تسلية النفس من خلال التقائهما بالخليط والجلس المؤنس لمّا تحفل المأدبة بإبرازه أكثر من أيّ جنس آخر، فتحوّله إلى موضوع يتنامى في كنفها وتسوسه هي بلطف الإطار ورشاقة الحديث ورقة الاجواء. إلا أنّ طبيعة الإنسان الذي ينشده الطبيب تظلّ منشدة إلى متعلّقات مهنة الطبّ، فكلّ منادمية هم من الأطبّاء، وفي هذا الاختيار ما يدلّ على إفراح مجال المشاركة بقدر ما يدلّ على ممارسة الإقصاء «exclusion»⁽³³⁾ إذ لا يطلّ على المجلس إلّا من كان متممياً إلى هذه المهنة عارفاً بدقائق المسائل في اختصاصه.

تؤوّل ممارسة طقوس المؤانسة وفق "شريعة المأدبة" من هذا المنظور إلى ممارسة إقصائية لأنّها تقرن شرط الألفة بشرط الاشتراك في المذهب، فهي في الظاهر تعني الانفتاح والمشاركة، لكنّها في الحقيقة تعني التعصّب والخوف من الآخر الغريب. يؤكّد التعلّق بالندامي من الأطبّاء طبيعة علاقة

(32) ديونيزوس Dionysos إله الخمر والعريضة في النثولوجيا الإغريقيّة.

(33) Derrida , jacques , Dufourmantelle Anne , De l'hospitalité , ed Galmann - Levy , 1997 , p 53.

صاحب المجلس بمهنته وعلاقته بالمعرفة الطبية بوصفها نسقا في الثقافة العربية لا يقلّ قيمة عن سائر الأنساق. ذلك أنّ انفتاح الثقافة العربية على الطبّ والمعرفة الطبية لم يكن مجرد انفتاح على مابه تعرف خفايا الجسم وتدير الصحة والمطعم وطبّ الأجسام العلية وإنّما كان انفتاحا على الحكمة وعلى إدماج الجسد من خلال المعرفة الطبية واستشعاره بصورة مغايرة للمألوف، إذ يضحى معنى معقولا وحكمة، حكمة في النفوس تنيرها وتعصمها من الشهوة، تريحها وتبهجها، تحييها وتحفظ سكينتها.

تبدو علاقة الطبيب بالطبّ كأوضح ما يكون في دعوة الأطباء حيث تتجلّى عبر تمثله لموضوع مهنته الذي لا يرى فيه سوى موضوع أخلاقيّ رغم تشبّهه بالدقائق العلميّة وتفصيل المسائل الخلافية وهو في الحقيقة ما دعاه إلى اعتبار أنّ القرنين لا يكون إلاّ من داخل المذهب.

يكتمل المجلس بحضور أهله فيزدان بالأطباء جالسين حول آنية الشراب في قبالة صاحب المجلس ويعزف التلميذ الطبيب على عوده ألقانا يطلبها المتنادمون فينتشي الحضور ويتمّ الحبور وتكون مداولة الكأس وإنشاد الشعر دأبا متجدّدا يحيي الانس ويبعث في النفس نشوة يترجمها الحديث.

يقول في وصف المجلس : "فقال الشيخ اليوم خمر وغدا أمر، فما فينا اليوم قراءة ولا تدريس لأنّ العلم الدائم يبيد النفوس وجالينوس يقول :إنّ العلماء يحتاجون إلى ان يتركوا التفكير وقتالئلاّ ينهك الأجسام ثمّ ملأ القدح وقال لتلميذه : اعلم أنّ القدماء يقولون إنّ العود مبنيّ على الطبائع الأربع وأنّ المضارب من المغثي يجري مجرى المبضع من الفاصد والأوتار كالعروق. ووجه العود كالأعصاب، فأياك أن تضرب ضربا يقع إيقاعه خارج الأوتار واعتمد ما سمعت منّي وهات غنّني بشعر أبي نواس في أستاذنا جبريل الطبيب فضرب الغلام فاندفع يغني فغنى نشيدا : (مجزوء الوافر)

سألت أخي أبا عيسى وجبريل له فضل
فقلت الراح تعجبني فقال كثيرها قتل
فقلت له فقدّرها فقال وقوله فصل
وجدت طبائع الإنسان أربعة هي الأصل
فأربعة لأربعة لكلّ طبيعة رطل⁽³⁴⁾

وغنيّ عن القول إنّ هذا الحديث سيكون موضوعاً طبيّاً يتدخل في تعديل أوتار العود وتعديل كلّ شيء يتطرّق إليه، فاختيار المندامين من الأطباء يمكن أن يوحى بالرغبة في جعل المجلس يحتفل بالطبّ ممثلاً في اختصاصاته : الطبائع والجراحة والفصد والصيدلة والكحالة، وهكذا يكون في تقديم الخطاب الطبيّ تقريرٌ ضمنيّ له وإخراج له من دائرة المصنّفات الطبيّة المقيّدة إلى رحاب أوسع هي رحاب المأدبة ورحاب الأدب.

تحوّل الطبّ إلى موضوع أدبيّ تتخذ منه المسامرة وتصرّف موارده ومواضيعه في سبيل وسم المتعة المتأتية من المأدبة وتصوير آثارها، بل إنّنا نجد أنّ ذاكرة الطبيب تحفظ الأخبار التي تسجّل وقائع طبيّة تنسج حولها الأخبار والأشعار، ومن ذلك مثلاً افتتاح الفاصد خطابه بالإشارة إلى قصّة فصد المتوكّل وإهدائه الجارية وتحوّل ذلك كلّّه إلى مناسبة للشرب والاحتفال بما يدلّ على أنّ الموضوع الطبيّ لصيق بموضوع التآدب والاحتفال⁽³⁵⁾.

إنّ الإله الوحيد الذي يعبد في مأدبة الأطباء هو الطبّ نفسه تتخذ له الموائد، وتقدّم القرابين وتطبخ الأطعمة من آلات الطبّ وتجسّ الأوتار جسّ الطبيب العرق والعصب وتحتسى الخمرة شراباً طبيّاً يعمّق صلة الطبيب بالذاكرة الطبيّة.

(34) دعوة الأطباء، ص 92، 93.

(35) انظر "دعوة الأطباء" ص 29، 93.

يختتم مجلس الشراب طقس المائدة وكثيرا ما تكون تجربة الخمرة والحديث مغامرة تجهل عواقبها فقلما اختتم مجلس بإعلان صاحبه عن ذلك. وإنما يتفطن المتأدبون إلى أن مصيرا باغتهم. ففي طقوس المآدب غالبا ما يكون الاستسلام للنوم علامة على السكر وعلامة على ختام المائدة. ويعدّ هذا السكر المفضي إلى غياب عن الوعي علامة على الإفراط والحياد عن السلوك المطلوب مراعاته في المآدب من زاوية الخطاب الطبي وحتى من منظور آداب المائدة⁽³⁶⁾.

إنّ في السكر موتا وإقرارا ضمنيّا بولوج عالم الجنون ولنن كانت الطقوس الديونيزيّة تقوم على شريعة العريضة والجنون فإنّها وضعت حدودا معلومة لطقوس احتساء الخمرة فعدت الشراب في أوّله صحّة «santé» وفي ثانيه (أي في الكأس الثانية) متعة «plaisir» وفي الثالث سباتا أو طلبا للنوم أمّا الرابع فهو بداية الإفراط وعند الخامس تكون بداية اللغط «tapage» والغوغاء حتى الكأس العاشرة حيث يكون الخبل والجنون «folie furieuse»⁽³⁷⁾. وإذا ما استقرأنا أطوار مجلس الشراب وتتبعنا الإشارات إلى عدد الأقداح، وجدنا أنّ الشيخ الطبيب وأقرانه قد بلغوا العاشرة أو تجاوزوها فقد طال ليلهم وطال هزجهم وتشعب حديثهم إلى أن غلبت على الشيخ السوداء وتذكر بؤسه ورثى الصناعة الطيّبة فانفجر باكيا وانقطعت حمة المؤادبة لتحلّ محلّها السوداء.

يقول في دعوة الأطباء واصفا هذا الموقف :

«فطرب أبو أيّوب الكحلّ وصاح : اسمعوا يا إخوان الصفاء وبقية العلماء فوحقّ منشئ الطبايع ومبدئ البدائع لو كتب هذا بالمباضع في

(36) انيساوي، سهام الدبّابي، الطعام والشراب في التراث العربي، اطروحة دكتورا الدولة، (بحث مرقون)، كلية الآداب متوبة 2004، انظر ص 412.

(37) Le Savoir boire au pays de Dionyos : Les règles de la tempérance , in l'Histoire , n° 85 , 1986

المسامع لوقع أشدّ المواقع فشرب القوم وطربوا وزال الشيخ عن حدّ الأشياء فلما دبّت فيه حميّا الكاس وانتشرت منه في المفاصل والرأس جدّ الشيخ في هذيانه وأخذ في بثّ أشجانه وقال : يا أخي لقد تعبت في جمع العلوم وكددت نفسي في قراءة الكتب وما بلغت بصناعة الطبّ غرضي من الكسب والسبب في ذلك أنّ مروعات الناس قد سقطت ونفوسهم قد خست وقد مضى العمر وكبرت السنّ وأنا ماض وما أخلف ولدا يحيي ذكري ولا حميما يبكي على قبري وتمثّل بقول الأوّل :

(الطويل) :

تذكّرت من يبكي عليّ فلم أجد سوى مجلسي في الطبّ والكتب باكيا
ثمّ أرخى عينيه ساعة للبكاء وانصرف القوم" (38).

كثيرا ما كانت المأدبة ضعفا من المتأدّين وانقطاعا واستسلاما وتحتفظ الأساطير المتعلّقة بالمآدب قصّة النهاية المحزنة أو الدامية التي تعرفها المأدبة فتكون بذلك مغيرة مجرى حياة الشعوب أو محولة مصائر الافراد. المأدبة نشوة سماوية تعقب موتا وانتهاء، والمأدبة كذلك طقس احتفالي ينتهي باغتصاب وغدر. ففي الاسطورة البابليّة أقام الاله "أنكي" «Enki»⁽³⁹⁾ مأدبة على شرف الإلهة "إنانا" «Innana» التي جاءت تزوره، أغرق "أنكي" في الشراب وفي تأمل وجه ضيفته واستسلم للنوم فأجهزت إنانا على كلّ الطلسمات « talisman » التي كان يحفظها بعناية لأنّه أودع فيها كلّ أسرار الحضارة الراقية وسبل تنظيم المدينة وسياستها ومنذ ذلك الحين عرف سرتطور مدينة "أروك" « Uruk » مدينة الإلهة "إنانا" وعرف في تاريخ المدن البابليّة أنّ سبب انتقال أسرار الثقافة يعود إلى مأدبة كثيرة الشراب وإلى إله خرج عن نواميس المأدبة.

(38) دعوة الأطباء، ص 166، 167.

(39) إله الماء والأرض في الحضارة السومريّة.

إنّ في نهاية المأدبة مجال تأويل واسع وهو في أيّ اتجاه ذهب يلتقي
دوماً عند تأكيد خصوصيّة هذا الشكل الاجتماعيّ وخصوصيّة الدلالة التي
توجّه أحياناً نحو تفسير أحداث تاريخيّة أو تفسير مظاهر السلوك
وبيان تحوّل القيم فنوم الطبيب في مجلس الشراب علامة على اندحار
الفكر العلمي، الفكر الأبولوجوني⁽⁴⁰⁾ المعتدل وإرغام الحكمة على الخضوع
أمام الجنون.

لقد بقيت المحاور في المأدبة على امتداد لحظاتها ومراحلها منشدة
إلى خطاب الاعتدال والتوازن في الطعام والشراب فإذا بنهايتها تعصف
بهذا الخطاب وتبرز أنّ الانخراط في أجواء "المأدبة" ونظامها لا بدّ أن
ينتهي إلى خرق لقانونها وخروج عن مراسمها.

تتحدّى مأدبة الأطباء في "دعوة الأطباء" قانون المأدبة «la loi du banquet»
والخطاب الطبيّ والأطباء أنفسهم، فحين يستسلم صاحب
المجلس، الشيخ الطبيب للنوم لإغراقه في الشرب يكون في ذلك إعلان
عمّا يشبه القتل الرمزي للصناعة الطبيّة ولمثّلها. ولا يخفى ما في هذا
التأويل من تلميح سافر إلى فكرة قتل الأب «le parricide» باعتبارها
فكرة تجد مستنداً في الممارسات القديمة لطقس المأدبة بل في جذورها
الأولى. "قتل الأب" فكرة أصيلة في طقس المأدبة وأثيلة في نظام المآدب
المقدّسة قديماً حيث يتحدّث عن مآدب دامية «banquets sanglants»
وعن حركة غدر وتوحّش تقلب نظام التأنس والنشوة السماويّة إلى نظام
التسلّط والدمويّة والخرق الفظيع⁽⁴¹⁾.

ولعلّ هذه الفكرة سواء ارتبطت بوقائع أو استقراء لتاريخ المآدب أو
ارتبطت بتأويل الطقس الثقافي ورموز الأطعمة المقدّمة والأشربة تظلّ في

(40) نسبة إلى "أبولون" Appollon إله الجمال والصفاء والحكمة في الحضارة الإغريقيّة.

(41) Detienne, Marcel, Dionysos mis a mort, ed Gallimard , 1977 .

رأينا علامة على تصوّر مضمّن في فلسفة الضيافة وتقاليد الإطعام واتّخاذ المآدب. فمن حيث جعلت المادبة وسيلة لتقريب الآخر "الغريب" و"تدجينه" «apprivoiser» يؤول امرها أحياناً إلى قضاء انتقام أو غدر ويحدث كلّ ما كان يُخشى ويُنقى.

ونجد في دعوة الأطباء معالم قراءة تؤكّد ما ذهبنا إليه حيث يفضي استقراء العلاقة بين الشيخ الطبيب وضيّفه الشاب المدّعي صناعة الطبّ إلى تبين المغزى من منع الضيف من الطعام وامتحانه في المسائل الطبيّة والمغزى من إجهاز الشاب في النهاية على كلّ ما تضمّنته المائدة (42).

وهكذا تبين لنا بوضوح أنّ "خطاب المادبة" نظام مراحل مترابطة ومتسلسلة تشكّل النهاية فيها مرحلة ختام هذا النظام وبلوغ عناصره منطقة استيفاء كلّ متضمّناتها من قدرات إنتاج الخطاب أو توجيهه.

ولعلّ في انصراف المتأدّبين وانسلاخهم واحداً بعد الآخر إثر الانهيار الذي أصاب صاحب المجلس من أثر السكر لمّا يدلّ على اختيار نهاية تتطابق مع ما يعرف في تقاليد الأدب وما يذكر في بعض النصوص التي تصف أجواها.

الخاتمة :

تفضي قراءة "دعوة الأطباء" للضبيب "ابن بطلان" إلى تبين ملامح المادبة وتلمس بعض خصائص هذا الجنس وطبيعة الخطاب الذي ينشأ في إطاره. وقد أمكن ذلك من خلال توجيه البحث إلى العناصر التي تحدّد المجال الأجناسيّ للمادبة وتعمل في الآن نفسه على نحت بعض السمات المؤسّسة لأجناسيّته. ولعلّ أهمّ ما دفعنا إلى إجراء هذه القراءة عدا طرافة النصّ وبلاغته ما يتوفّر عليه من أسباب قراءة تلحقه بالنماذج القليلة

(42) انظر قوله في "دعوة الأطباء" ص 170 : "... وجلت فأعيد الطبق وقدم الحمل فلم نبق ولم نذر وعدنا على الفالودج فأتينا على بقيّة وملنا نحو الشراب فشربنا فضله".

المعروفة في بابها، ذلك أننا نعتبر أنّ "دعوة الأطباء" نموذج مثاليّ لجنس "المأدبة" استطاع أن يحوّل ما تنطوي عليه الممارسة الطقسيّة والثقافيّة من معان إلى إمكان إنتاج خطاب يترسّم آثارها ويطوّعها بحسب مقتضيات الأدب والثقافة العربيين.

ولا يخفى ما يمكن أن يلاحظ في "دعوة الأطباء" من آثار تقرّبها من أخبار المجالس أو قصص الضيافة وما ينتظم في سلوكها من نصوص تصف الاطعمة والأشربة أو أجواء الأكل ومجالس اللهو والعريضة أو أخبار البخلاء وقصص التطفيل وما شاكلها، إلّا أنّ هذه المشابهة قد تحمل على تقارب في مستوى الجداول التي تنهل منها ثقافة المؤلف وتتأسّس عليها ملكات الكتابة عنده دون أن تحمل - في نظرنا - على ما يردّ إلى تداخل في الأصول الأجناسيّة المؤسّسة لهذه الأنواع أو تماسّ بينها. فلا شك أنّ "الذاكرة الأدبيّة" للمؤلف قد تسعفه بما استقرّ داخلها من نماذج طريفة حول وصف الطعام أو حول احتجاج البخيل لمنع الأكل، تعود إلى "الجاحظ" أو إلى "الهمذاني" أو تعود إلى طريف ما حفظته الأخبار عن مجالس الخلفاء لكنّ هذا لا يعني ضرورة أنّ هذه النماذج تتحكّم في إنتاج "المأدبة" أو تتفاعل لتبرزها، فهي تلوّن الخطاب داخلها وتطبع معالم أدبيّته بما يجعلها منغوسة في تقاليد الكتابة النثرية القديمة مستوعبة لنصوصها.

إنّ للمأدبة مجالا أجناسيا مخصوصا تتحدّد وفقه شروط إنتاجها ولعلّ هذا من الأسباب التي تفسّر ندرة النصوص في بابها ولعلّ هذا ما يفسّر أيضا وجودها في عمق "الثقافي" وتحليلاته ذلك أنّ المحاور التي تنامي في أكناف المأدبة تؤسّس لخطاب يكون في الغالب لسان حال الثقافة التي تحتضنه ومصداقاً لأهمّ نوااميسها.

وتمثّل المحاور أهمّ ظاهرة في المأدبة وأحراها بالدرس فهي لنن عدتّ أدخل في التقاليد الإغريقيّة للتلفسف وأشكال إنتاج المعرفة، لا تعدم

في النصوص العربيّة نماذج طريفة خاصة فيما يتعلّق بمحاورات العلماء. طوّرت "دعوة الأطباء" المحاورة وحصرتها في المجال الطّبيّ مستعرضة داخلها بعضاً من المسائل التي اختلف حولها فأفسحت المجال للمعرفة الطّبيّة لولوج مجال الادب وبدأت المحاورة في تناميها وتفرّع أسبابها وجولان المتحاورين بين الشعر والنثر الحلقة المؤسّسة لمناقلة الحديث والمشكّلة لخطاب المادّية ففي فضاءها يتشكّل معنى "التأثّر" وفي طيّاتها تكمن سبل تطوير الخطاب. وبدأت المحاورة إلى جانب ذلك المجال الذي هيأ لتضافر الخطابين الطّبيّ والأدبيّ تضافراً أضحت بمقتضاه معرفة الطبيب حول علل الجسم تسخر من حديث الشاعر عن أمراض العشق وأصبحت دراية الفاصد بالعروق تحاكي خبرة العازف في جسّ الاوتار⁽⁴³⁾.

إنّ التداخل بين مجالات المعرفة الطّبيّة ومختلف الخبرات والتقريب بينها لا يعود فقط إلى تداعي الحديث وإنّما تتلمّس أسبابه البعيدة في سياسة الخطاب داخل المادّية وهو بدوره ما يدفعنا إلى التساؤل عن الإشارات التي تزخر بها الشواهد الشعرية وعن السرّ في تصدير "دعوة الأطباء" بأبيات للشاعر "مجنون ليلي" تصف جنون العشق وما يلقاه العاشق⁽⁴⁴⁾.

تبقى المداخل إلى هذا الأثر عديدة ومتنوّعة حاولنا أن نتبيّن بعضها من خلال التركيز على مدخل أجناسيّ هو المادّية وهو ما من شأنه أن يعدّل بعض تصوّراتنا حول ما عرف من "أدب المادّية" نعني بذلك التصرّو الذي يجمع في حيّز واحد كلّ النصوص التي يحضر فيها وصف الطعام أو الشراب. إنّ ضرورة مراجعة ما تتصوّره حول هذه النصوص تبدو متأكّدة لأنّها إن لم تعدّل نظرنا فهي تعيد صياغة أشكال التساؤل عن

(43) "دعوة الأطباء" ص 113، 114.

(44) انظر فاتحة الكتاب وخاصة تعليق المحقّقة حيث أشارت إلى أنّ هذه الأبيات لم ترد في نسخ أخرى مخطوطة من "دعوة الأطباء".

محاور قلمًا ينتبه إليها في الأدب وهي محاور من قبيل "كتابة الرغبة"
«l'écriture du desir» أو "كتابة الشره والنهم" «l'écriture
gourmande» وتبين دلالة حضورها في نصوص غير خالصة الانتماء إلى
هذا المجال من مجالات الكتابة.

بسمه عروس